الشك

إن أشد الناس شكًا هو الذي يشك في شكوكه

الشك هو النزاع بين واقعتين تُحاول كل منهما أن تملي إرادتها، ويختلف الشكاك عن المُعتقد أو عن الكافر، فالمعتقد الواثق بالشيء أو الكافر به رجل وصل إلى شاطئ، أما الشكاك الظنان فهو مُتردد بين أيهما يصل، فهو أشبه بالضال في صحراء يسير فترة طويلة نحو الشمال ظانًا بأن الطريق الذي يسلكه يهديه الطريق فلا يلبث بعد أن يقطع شوطًا طويلًا، حتى يغير رأيه فيرتد نحو الجنوب ويعود من حيث أتى، حتى إذا وصل إلى النقطة التي بدأ منها عاودته الفكرة الأولى للسير نحو الشمال، وهكذا يقضي حياته بين الذهاب والمجيء دون أن يرى نجمًا يهديه السبيل.

وموضوع كلامنا هُنا عن الشكل العصبي الذي يقلق النفس ويثير المخاوف ويضعف الثقة فيها ويُؤدي إلى الانهيار العام، مما يُؤدي في كثير من الأحايين إلى الجريمة أو الجنون والقلق النفسي، وأنت لا يُمكن لك أن تجد القلق والاضطراب دون أن يصحبهما الشك والظن، والشك ظن وإثم، وإن بعض الظن إثم، والإثم يكون دائمًا ومصحوبًا بالخوف، والخوف يكون دائمًا مصحوبًا بالموت.

وليس هُناك قلق نفسي إلا وصحبته هذه الأسئلة «هل أفعل هذا أم لا أفعل؟! وتعقب هذه الأسئلة المُتلاحقة من التردد والشك الإجابات التي

تتابع في أسف وحزن لتقول للمريض: لا يجب ألا تفعل هذا، بل يجب أن تفعل هذا» فإذا لم تنجح في الوصول إلى ما تريد فقد ينجح آخر ويغلبك على أمرك.

ويحمل الشك معه ضعف الثقة، فالظنان الذي يكثر الشك في الآخرين إنما هو في الواقع يشك في نفسه ويحمل بين طياته عوامل السقوط والانهيار وأن الذي يثق في الناس هو في الواقع يثق في نفسه. والشك والاعتقاد كلمتان مثل الحب والبُغض، فليس هُناك من يعتقد في شيء قبل أن يشك فيه، مثله مثل المريض بالسادزم يكون في الوقت نفسه مريضًا بالماسوشيزم.

وهذه قصة رجل يمتهن المُحاماة يشكوك من اضطراب عصبي وتبدو عصبيته في أسلوب تردده في الحياة. فإذا ترك المنزل مثلًا في إحدى الأمسيات ليتنزه بعض الوقت انتابه قلق شديد واضطراب وراح يشك في كل شيء يُقابله، ويعتقد أنه ترك الدار مفتوحة دون اكتراث فيعود إلى نفسه قبل أن يُغادر باب بيته ليتأكد بنفسه من أنه أغلق النوافذ كلها، فيدور حول كل نافذة ليقتل الشك باليقين ثم يتأكد من أنه أغلق غاز الاستصباح، وبعد ذلك يهم بمغادرة باب البيت، ولكن في اللحظة التي يُحاول فيها ترك الدار يطرق ذهنه خاطر جديد هو التأكد من أن الباب الخلفي مُغلق، فيدلف مرة أخرى داخل الدار ليتأكد بنفسه من الباب الخلفي، ولكنه يتردد أيضًا في الدخول إلى الدار مُعللًا بأن الخادمة تنام بجوار الباب الخلفي، فإذا جرؤ لص على الدخول فستسمعه الخادمة،

ولكنه يخشى أن يحدث ويتمكن أحد اللصوص من الدخول إلى الدار وبذلك تتعرض الخادمة للص فيصيبها بسوء، ثم يحاول أن يكفي نفسه المئونة فيهم بالدخول إلى الدار ليتأكد بنفسه من أن الباب مُغلق فعلًا، ولكنه لا يلبث أن ينتابه التردد فيعود أدراجه مُتعللًا ببعض الأسباب ومُؤكدًا لنفسه بأن الباب مُغلق وأنه تحسسه من دقائق، ثم بعد ذلك يُعد نفسه للرحيل بعد أن يقضي وقته في التردد في توافه الأمور والمسائل، وأخيرًا يترك الدار بعد جهد ومجهود.

ما الذي حدث في نفسية هذا الرجل؟! وكيف اعتلت به الأمور وتطور به الشك؟!

لقد استيقظ هذا الشك في ذهن هذا الرجل من اختلاط الحقائق مع الخيال، ومن المثاليات مع الملموسات، ومن اختلاط المعنوية مع المادية. إن هذا التردد كله مرده الخادمة، وذهن هذا الرجل يتركز على الخادمة فهو يريد الانطلاق إلى الخارج ولكن ميله الشديد لأن يظل بجوار الخادمة يجذبه للداخل، فعقله الناضج يريد به الخروج، وعقله الباطن يلح عليه العودة إلى الخادمة وأن يظل بالدار.

العقل الناضج يقول له «اخرج فأنت قد حكمت المزاليج وأغلقت مصباح الغاز وتأكدت من أن كل شيء على ما يُرام، فما الداعي إذن للعودة بك مرة أُخرى!». وبينما يصر العقل الباطن على العودة إلى الدار مُتذرعًا بأسباب وعلات واهية ويلح عليه في الرجوع إلى الفتاة مُناشدًا إياه

الحب قائلا «إن الفتاه تتمناك فلما هذا التمنع؟! وما الداعي لهذا التعلل أنها تتحرق إنها تلتهب.. عُد إليها... وارجع إلى البيت.. وتملكها بين ذراعيك».

وهكذا رأينا كيف انقلب الحب الكامن في قلب هذا الرجل إلى قلق واضطراب وحيرة، وأن ما من شيء يُمكن أن يمنعه من الاستحواذ عليها، غير الخوف من الضمير، هذا الضمير الذي يقف له بالمرصاد؛ فكأن لسان حاله يقول «ترى أحاول شيئًا معها أم أقلع عنها؟! فالنفس تدفعه والضمير يمنعه».

وهذا الشك أو هذا التردد عبارة عن نزاع بين رغبتين: رغبة العودة إلى البيت ليتأكد من إغلاق النوافذ وإغلاق الباب وبالتالي ليشبع عينيه من منظر الفتاة.

هُناك ملاحظات نذكرها هنا: ذلك أنه كان لوالده قبل زواجه تجارب ومغامرات مع بعض الخادمات، فراح يُحذره (الأب يُحذر الابن) من خطر الخادمات؛ مما رسخ في ذهن المريض أنهن مصدر للشر.. معنى ذلك أنه لو ثارت عاطفته الجنسية نحو أي خادمة تجد مُقاومة عنيفة منه، ومن هُنا ظهر التردد نحو التقرب إليها في صورة من الظنون والمبالغة في المحافظة على الدار، فكأن مصدر هذا التردد هو ما انطبعت عليه نفسيته من خوف الاقتراب من الخادمات أو الفتيات وما يتضارب فيه هذا الخوف من إشباع للرغبات الجنسية.

وثمة لفتة أُخرى على مريضنا هذا.. نجد أن قلبه مُفعم بالخوف، ومرد هذا الخوف هو ما يتردد في نفسه مما قد يعمد إليه أخوه من محاولة إغراء هذه الخادمة، فكأنه يريد بذلك أن يعود إلى الدار ليتأكد من أن أخيه لم يغادر مكانه وأن الخادمة لم تبدأ مغامرتها بعد.

إن كل المترددين المتشككين في الناس يعتقدون أن الذين حولهم يحملون ميولًا وعواطف تُشابه ميولهم وعواطفهم، فالذي يشك في الناس يشك في نفسه فكأن مصدر شكه في الناس هو شكه في نفسه.

إن الغيرة رمز للحب – فأنا أغار على هذه الفتاه لأني أحبها – فلو كانت غيرتي على فتاة أُخرى أكثر من غيرتي على الفتاة التي معي، فمعنى ذلك أن حُبي للفتاة الأُخرى أكثر من حُبي للفتاة التي معي، معنى ذلك أيضًا أن عواطفي تتشعب، فكأني إذن أمام حب مُثلث الأوضاع، أو بمعنى آخر أمام غيرة مُثلثة الأوضاع ويقوم أمام أحد أضلاع هذا المثلث حب أعمى أو غيرة عمياء.

وفى قصتنا هذه، نلمس قوة التعلق بين هذا المريض وبين أخيه وهو التعلق الذي عبرت عنه كُتب علم النفس بأنه عُقدة أُوديب المقلوبة، وهو الحب المُقنع بين الأخ وأبيه أو بين الأخ وعمه، وهو يهدف من طرف خفي وعن طريق غير مُباشر إلى شذوذ جنسي مُقنع.

كما نلمس أيضًا قوة الميل الجارف المُقنع بين هذ المريض أيضًا وخادمته، فكأننا أمام شاب يتعلق بأخيه وبخادمته فلا شك أن الغيرة تزداد

قوتها لو أن أخاه وخادمته اتفقا ضده، حينئذ يصبح فريسة للهزة النفسية المُضاعفة، وهذه الهزة قابعة في العقل الباطن – أعني في اللاشعور – وهي هزة لا يُقدر قيمتها لأنه لا يعرف أسبابها وعلاتها وكان رد مفعولها عليه فيما يظهر من اضطرابه أو بمعنى آخر تردده وظنونه وشكوكه.

ومن القصص الأُخرى التي مرت أمامي قصة فتاة في ربيع الحياة ينتابها قلق شديد واضطراب عصبي، فهي مثلًا إذا ذهبت إلى أحد المطاعم وتناولت طعامًا ودفعت ثمن أكلها وغادرت المطعم لا تلبث أن تعود إليه مُترددة مُتسائلة هل دفعت الثمن حقيقة أم أنها لم تدفع شيئًا، فتسأل الخادم الذي يُؤكد لها بأنها دفعت ما عليها وبذلك تُغادر المكان، ولكن شعور التردد لا يلبث أن يُعاودها من جديد فتشك في كلام الخادم مُدعية بأن الخادم مُخطئ أو أنه مُتعمد كي يُسبب لصاحب المطعم خُسارة، فقد تكون العلاقة بينهما (بين الخادم وسيده) سيئة.

وهي إذا جلست لتكتب خطابًا على أحد أصدقائها ثم بعد ذلك ألقته في صندوق الخطابات وسارت لسبيلها ومضت فترة لا تلبث أن تتردد في المكان الذي وضعت فيه الخطاب فتسائل نفسها هل هي أرسلته حقًا؟! أم أنها تركته دون أن تضعه في الصندوق!

ولقد حدث مرة أن كانت في حجرة مُغلقة مع أُستاذها الذي يُعلمها الموسيقى فراح في غمرة عاطفية يُقبلها ففقدت صوابها وأُغمى عليها (لأنها أرادت أن تتعامى عما يحدث لها حينذاك) ولما استفاقت راحت تُردد في

حقيقة ما حصل فتتساءل عم لو أن صديقها قبلها حقيقة وأُغمى عليها بعد ذلك أم أنه لم يُقبلها؟!

وتحمل في نفسها رغبة بغيضة نحو والديها فتعتقد بأن الحنان معدوم في قلبيهما وأنهما يُعاملاها بقسوة وغلاظة، فعليها أن تتحمل مسئولية البيت.

وهي تشك في نفسها شكًا عميقًا، ولقد بلغ بها الأمر حدًا أن ظنت نفسها غير عذراء، وهي إذا رأت قارورة أو أي قطعة زُجاجية في البيت راحت تتحسسها، لتتأكد بأنها سليمة غير مكسورة، فإذا تأكدت من سلامتها ووضعتها في مكانها لا يلبث الشك أن يُعاودها مرة أخرى فتعود لتتحسسها.

كما أنها تعتقد أن بعض الشُبان يُطاردونها ويرسلون لها خطابات مُثيرة، ومن أجل ذلك تذهب كل يوم إلى صندوق خطاباتها مُتوقعة خطابًا من ذلك المُغامر الذي يُريد أن يعبث بقلبها، فإذا خاب ظنها في وصول ذلك الخطاب انتابها شيء من التردد في أن يكون بعض الجيران قد أخذ ذلك الخطاب ليكيد لها. وينتابها شيء من الخوف والقلق والاضطراب، ذلك لأنها تتوقع من حين لآخر أن تجيئها زوجة أستاذها الموسيقي الذي تحبه مما قد يُؤدي إلى فضيحة لها.

هذا الشك في كل شيء مرده العقل الباطن والنزعات المكبوتة التي تجيش في صدرها، فهي تتمنى أن تكون حُرة طليقة تُغامر بصراحة في ميدان

الحب الواسع الكبير، وهي شديدة التعلق بوالديها ويظهر هذا التعلق في الكراهية التي تكنها نحوهما، فالكراهية هنا نوع من الحب.

أما شكها في نفسها فمرده الرغبة في الحرية، فكأنها تخشى لو استرسلت في الطريق القائم أن يُؤدي بها السبيل إلى أن تضيع الجوهرة الثمينة، فكأنها تخشى من هذا الطريق وكأنها في الوقت نفسه تتوقع ما يحدث لها من جراء السير في الطريق الأعوج.

وأنتقل إلى قصة أُخرى لشاب طالب بكلية الطب يُنازعه شك عميق في كل شيء يبدو أمامه، ويزداد به الشك حتى بات يشك في نفسه، فهو مثلًا يخشى أن يكون في مُجتمع فيتصرف تصرفًا فيه خدش لكرامته مما قد يسئ إليه وإلى سمعته.

وقد حدث مرة أن أقامت الجامعة حفلة ساهرة فراح يُسائل نفسه عما يكون تصرفه مع زميلاته حينذاك، هل يُمكنه أن يكون مُحترمًا.. وهل يتمكن من أن يُراقص الفتيات بمهارة.. وهل؟! وهل؟!

وكان كل خوفه يتركز في الفشل في ألا يكون رجلًا اجتماعيًا ولما حل ميعاد الحفلة، ودخل الردهة الواسعة، كان يخشى أن يكون مجيئه مُتأخرًا، ولشد ما كانت دهشته أن وجد أنه لم يحن ميعاد المدعوين وكثيرًا منهم لم يأت بعد، ودقت الموسيقى، فتقدم إلى فتاة وهو مُتخوف من أن ترفض مُراقصته، ولكن لم يلبث أن زال خوفه عندما قبلته، فراح يُراقصها في حذر وخوف من أن يدوس على حذائها أو يصدمها، وهو يدور بها في الردهة

الواسعة، وبعد ذلك اشتد به الاضطراب فظن الفتاة سئمته فراح يتكلم بسرعة وعصبية مُعتقدًا أن في حديثه ما قد يغريها على التودد إليه، ثم سكت لأنه خاف من أن يكون قد أثقل عليها فضايقها.

ولما انتهى ميعاد الحفل وأخذ يسير نحو بيته، خطر بذهنه خاطر لم يكن له على بال، فقد أحس بأن حذاءه ضيق فراح يُسائل نفسه عن مدى الضرر الذي يصيبه من جراء ذلك الحذاء الضيق؟! وعن مدى الضرر الذي يكون قد تسبب للفتيات الأُخريات اللائي كُن يُراقصهن؛ فقد خاف ألا تكون خطواته مُنتظمة، وبذلك تسبب في مضايقة بعض صديقاته اللائي كن معه بالحفلة بأن يكون قد داس على أحذيتهن.

هذه المخاوف التي تتجاوب في نفسه تقوم على أساس خرب في ذهن المريض، فلم يكن الحذاء ضيقًا، وهو لم يُؤذ نفسه أو يُؤذ أحدًا آخر، وكل تصوراته تقوم على خيالات لا أساس لها ألبته. يُمكن لنا أن نلمس اضطراب هذا الفتى، ويُمكن لنا أن نلمس التزمت الشديد الذي يعيش فيه، كل هذا نتيجة تعطشه الجنسي.

إن خوفه من أن يحضر الحفلة مُتأخرًا خوف يُعبر عن رغبته في أن يشبع نفسه بأكثر قسط مُمكن من الحفلة من أولها إلى آخرها. أما خوفه من الحضور مُبكرًا فله جذع عميق في ماضي حياته، فقد حدث له وهو طفل صغير في الخامسة من عمره أن دخل مرة حجرة نومه فشاهد خادمته مع صديق لها في موقف غير مُشرف فتراجع إلى الوراء، ومن هُنا ارتدت

الانعكاسات النفسية، فكان الخوف من أن يحضر الحفلة مُبكرًا هو الخوف من المناظر القديمة الراسخة في ذهنه بذكرياتها العاطفية، فكأنه لا يريد الحضور مُبكرًا حتى يعطي فرصة للخادمة للانصراف مع صديقها. ولقد أنبته الخادمة وهو طفل على رعونته وسرعة دخول الحجرة، كل تلك اللفتات الماضية انعكست على حياته الراهنة فبات يخشى التبكير في الأمور.

أما الخوف من أن يكون قد تسبب في ضرر بعض فتيات الحفلة بأن داس على أقدامهن، فمرد ذلك إلى ما يجيش بصدره من ميول نحو النساء وخوفه من أن يرفضنه. فكأن الانعكاسات النفسية تمثلت في حذائه، وكأن لسان حاله يقول «لو أني دست بقدمي على قدم الفتاة التي كانت معي دون أن تظهر الامتعاض أو تُبدي الألم؛ فمعنى ذلك أنها استجابت لعواطفي».

وفي الوقت نفسه كان عقله الواعي يقف له بالمرصاد يُنبهه إلى ما في ذلك التصرف من قحة، وهكذا كان رد فعل تلك التيارات النفسية التي تجيش في صدره هو التردد والحيرة والشك والظن.

هذا الشاب عاش في طفولة مكبوتة فقد حذرته أمه من النساء، وسلطت عليه ضوءًا قويًا ليبتعد عن المرأة، فعاش في حرمان، عاش بين الميل للمرأة وبين الابتعاد عنها، عاش بين حب المرأة إرضاءً لنداء الطبيعة،

وبين البُغض لها إرضاءً لنصائح أمه، ومن ثم ظهر ذلك النزاع في صورة التردد والشك ثم المرض.

أما هذه القصة التالية فعن شاب أراد أن يترك جامعة فيينا ليلتحق بإحدى الجامعات التي في برلين، وفي يوم من ذات الأيام ذهب إلى جامعته في فيينا ليطلب منها أن تُحول أوراقه الدراسية إلى الجامعة الجديدة التي اختارها، كما طلب من جامعته في الوقت نفسه أن تعطيه شهادة بسلوكه ودراسته في الجامعة، وعندما حاول أن يخرج ورقة التحقيق الشخصية ليثبت لكاتب المدرسة أنه صاحب الطلب وليحولها أيضًا إلى برلين ضمن أوراقه المدرسية الأخرى اكتشف أنه أضاع هذه الورقة، فانتابه خوف، فقد خشي أن تسقط هذه الورقة في يد بعض المجرمين فيقترف جريمة ثم يترك ورقة التحقيق الشخصية بجوار جسم الجريمة مما يوقعه في الشر، وبذلك يعتقد الناس أنه هو المجرم الأصلي.

وعلى العموم فقد تعرف عليه سكرتير الجامعة ويسر له مهمته، وعاد الشاب إلى داره وراح يبحث عنها في كل مكان، ولكن عبثًا لم يتمكن من الاهتداء إلى ورقته الضائعة.

وعندما حل به المساء راحت المخاوف تطرق ذهنه في شكل عصبي عميق فأضاعت النوم من جفونه، ثم ازدادت قسوتها حتى أحس كأنه يقترب من حافة الجنون، فقد شعر كأن هاتفًا يُناديه من أعماقه ليُؤكد له بأنه قريب الوقوع في شرك جريمة، وأحس كأن ذلك الهاتف يُناديه بأن

يعمل شيئًا لينقذ نفسه مما هو مُقدم عليه، وأن أحسن وسيلة للتخلص من الشرك هو أن يتصنع الجنون، وبعد ذلك اشتدت به الحالة سوءًا وراح رأسه يدور مع الهاتف وجرفه التيار العميق حتى دار مع الدوامة وسقط في النوم.

وعندما استيقظ الصبح كان كسولًا مُمزق الأعصاب والنفس، ثم ظن أن يكون قد نسي الورقة عند صديقته فذهب إليها عله يجد معها هذه الورقة، ولكنها دُهِشَتْ منه وأنكرت عدم معرفتها أي شيء بخصوصها. ولما عجز عن الاهتداء إلى غايته أسر إلى أمه بمخاوفه فنصحت له بتبليغ البوليس ففعل ما أُمرت به.

وفي اليوم التالي ذهب إلى الجامعة فأخبره السكرتير بأنه ترك ورقته الخاصة بتحقيق الشخصية كي تضم إلى بقية أوراقه المُحولة إلى جامعة برلين؛ فأظهر الشاب دهشته لما حدث ورجاه أن يُطلعه على هذه الورقة ليتأكد من بعض معلومات بها وراح يفحصها بدقة ثم أعادها له مرة ثانية، وغادر المكان وبمجرد أن ترك ساحة الجامعة راحت الشكوك تقفز من جديد إلى ذهنه فقد ظن أن سكرتير الجامعة خدعه في الورقة التي أطلعه عليها بورقة أُخرى.

قد يرمز الشك إلى الماضي أو الحاضر أو المُستقبل، وفي موضوع قصتنا هذه يحمل معنى الشك للماضي، فتساؤله عن الورقة التي ضاعت فيه معنى التساؤل عن حياته الماضية فتُردده السؤال «هل كانت هذه الورقة هُنا أم هُناك؟!» والسؤال عن الحاضر يحمل معنى «هل أحلم أم أنا

يقظ؟! وهذا يعني هل أنا مُوفق في حياتي العاطفية؟! وهل تستجيب المرأة لحُبي أم أنا غير مُوفق غير سعيد» أما سؤال المُستقبل فيهدف إلى تردده وهو يُسائل نفسه قائلًا: «هل أظل في فيينا أم أذهب إلى برلين؟» ويعني هل يجد السعادة العاطفية في برلين أم في فيينا؟! فهذا السؤال يهدف إلى مستقبله الجنسي؟

في ماضي هذا الشاب قصصًا عاطفية كانت تدور فصولها حول الشك في عائلته فكان دائب السؤال لنفسه «هل أنا ابن شرعي أم أنا ابن سفاح جاءت بي أُمي من رجل ليس أبي؟!».

ولقد ارتدت تلك الخيالات والنزعات الآثمة التي تحمل الشكوك في عصبيته، وارتدت على شخصيته وامتدت على تصرفاته الحاضرة، فراح يشك في كل شيء يُقابله وبات المُستقبل أمامه صورة للتردد والظن والشك.

إن الشك مظهر للانفعالات النفسية التي تتناوب قلب المريض، وهي أيضًا رد فعل لأحداث الطفولة. والشك دائمًا أبدًا مرض نبت من صدمة نفسية ثم راح يشيع داءه على كل الجسم، والمصيبة في هذا الداء أنه يُؤدي إلى أن يفقد الظنان سيطرته على حواسه فيفقد قوة التمييز والخيار بين الأمور، وبالتالي يفتقد قوة الإرادة وقلما تثور نزعات مُتضاربة في قلب إنسان مثل المريض بالشك، فهو يحب ويكره في وقت واحد، وهو إذا أراد شيئًا راح يتفانى في مُحاولة إتمامه، وفي الوقت نفسه يزهد فيه ويُبالغ في الابتعاد عنه، والمريض بالشك إنسان يكتمل فيه عامل النضوج والارتقاء في الوقت الذي تنحدر فيه نحو السقوط والانهيار.